الفلاح والثورة العربية في الجزائر ...

بقلم عثمان سعدي

ان ابرز سمات الثورة العربية بالجزائر ارتباطها بالارض . فالارض هي الاطار الذي يبرز النضال ، والارض هي منبع مقاومة جيوش الاحتلال، وهي المصدر لكل الانتفاضات التي قام بها شعبنا هناك ، هذه الانتفاضات التي تطورت الى ثورة اعتبرت معجزة في تاريخ نضال الشعوب ضد الاستعمار .

واذا تفحصنا تاريخ الجزائر بمجهر النزاهة العلمية والانصاف الموضوعي، وجدنا ان العنصر الدينامي الفعال الذي لعب دورا رئيسيا في المقاومة والثورات هو الفلاح ، الفلاح هو الذي قاد المقاومة ضد جيوش الاحتلال الفرنسية والتي استمرت (من سنة ١٨٣٠ الى ١٩٠٣) فمن الفلاحين كون عبد القادر جيشه الذي قاد المقاومة مدة سبعة عشر عاما من (١٨٣٠ الى ١٨٤٧) والفلاحون هم الذين قاموا بثورة ابي بغلة سنة ١٨٥١ ، وهم قاموا بثورة بني سناسن سنة ١٨٥٩ ، وهم الذين قاموا بثورة اولادسيدي الشيخ الاولى سنة ١٨٦٤ ، والفلاحون هم الذين كون منهم البطلان الخالدان مقران والشيخ حداد جيشا ثوريا ١٨٧١ اضطر فرنسا الى ارسال ربع مليون جندي لاخماد هذه الثورة بعد ان خسرت فيها ٦٠٠٠٠ جندي من زهرة ابنائها . والفلاحون هم الذين قاموا بثورة اولاد سيدي الشيخ الثانية سنة ١٨٨١ عقب احتل فرنسا لتونس مباشرة ... والفلاحون مع البدو هم الذين حاربو جيوش فرنسا بصحراء الجزائر من سنة ١٨٨٩ الى سنة ١٨٩٢ والفلاحون هم الذين قاموا بثورة اوراس سنة ١٩١٧ .

لكن لماذا كان الفلاح بالجزائر عنيفا في مقاومته للاحتلال الفرنسي ، في الوقت الذي نجد فيه شقيقه بتونس ومراكش لم يقم بدور نضالي يذكر ضد الوجود الفرنسي ؟ اليس الفلاحون في المغرب العربي من طينة واحدة ؟ الا يجري في عروق فلاح الجزائر نفس الدم الذي يجري في عروق فلاح تونس والمغرب الاقصى ؟

ان الارض هي السبب الرئيسي في عنف مقاومة الفلاح بالجزائر للاحتلال . فتوزيع الارض بالجزائر الذي يكاد يكون الوحيد من نوعه في تاريخ الاقطار الحديث ، هو الذي ولد هذه الطاقة الثورية في نفسية الفلاح .

عندما دخل الفرنسيون في الجزائر وجدوا انواعا من الملكية العقارية .

١ ـ ملكية الدولة (البابليك)

٢ـ اراضي الحبس الموقوفة على المنشآت الدينية والجمعيات الخيرية .

٣ـ اراضي القرية او القبيلة (اراضي العرش) وهي عبارة عن ملكية جماعية .

٤ـ اراضي الملاك الافراد .

وتنعدم من الخمسة اسداس الخارجة عن نطاق الحكم التركي (١)،الملكية الفردية وتنتشر الملكية الجماعية ، التي نجدها بقلة في السدس الواقع تحت النفوذ التركي ... والقبائل بالجزائر لم تعرف الملكية الفردية الا بعد دخول الفرنسيين . لقد كان لكل قرية ارضها الخاصة بها ،يستغلها سكانها استغلالا جماعيا ، يعين شيخ القرية كل سنة ، جزءا من الارض للاسرة تستغله ، وتضم مجموعات من الاسر الاراضي المخصصة لها ، بعضها الى بعض ، ثم تزرعها ، والفرد والاسرة لهما حق الاستغلال وليس لهما حق الملكية .

كانت القبائل لا تعرف بيع الارض قبل دخول الفرنسيين ، واذا استثنينا السدس الواقع تحت نفوذ الاتراك ، وجدنا ان هذا النظام الزراعي الجماعي لم يتح للاقطاعية ان تنشأ ، وخلق نوعا من الحياة الديموقراطية تتخذ العدالة الاجتماعية قاعدة لها . فالارض ملك للجميع ، والفرص متاحة للجميع ، وما على الفرد الا ان يكد ويعمل حتى يحصل على الانتاج الذي يحفظ له كرامته الانسانية . وقد شهد بهذا القادة العسكريون الفرنسيون انفسهم عندما دخلوا الجزائر ، ووجدوا بها حياة ديموقراطية افضل من الحياة السائدة في فرنسا نفسها ، مثل الكونت دي هيرسون الذي كتب يقول: «انني اشك في شرعية احتلالنا لهذه البلاد ، فأن للقبائل حق الاولوية ـ الذي لا جدال فيه ـ من المعيشة بين منازلها كما هو حالها من اجيال مضت . ويبدو لي ان العرب لم يسيئوا التصرف في معيشتهم ، ما داموا يحكمون انفسهم بقوانين ديموقراطية صالحة .. ونحن انما نقسو عليهم لا لشيء الا لاننا اقوى منهم » .

ويقول الكولونيل (فوري) : « لم ار قط ولم اكن اتوقع مثل هذه الكثرة من السكان ، ومن ضخامة المراكز التي تجمعهم كما رأيت في جبال (بني بو عايش) و (بني مالك) . فهنا تجد المساكن المنعزلة كثيرة ، ولكن تجد ايضا مداشر وقرى ، شبيهة بالتي عندنا في فرنسا ، وفي احسن واجمل ما تكون من المواقع . كلها محاطة بالبساتين والجبال المشجرة العاتية العظيمة بزياتينها .. لقد وقفنا كلنا مشدوهين مذهولين لهذا الجمال الطبيعي الذي لا يكاد يحد . ولكن الاوامر هي الاوامر ... وقد كان اعتقادي انني اقوم بواجبي كاكمل ما يكون ، عندما لا اترك قرية واحدة قائمة ، ولاشجرة واقفة على ساقها ، ولا حقلا عامرا . وان الشرور التي اقترفها جنودي كانت لا تحد ولا تحصى . ولكن هل ذلك شر ؟ ام هو خير ؟ انني اعتقد شخصيا ان ذلك هو الوسيلة الوحيدة لحمل السكان على الاستسلام والهجرة .»

(١) كانت الجزائر في العهد التركي مقسمة الى قسمين ، قسم يقع تحت نفوذ الاتراك وهو عبارة عن بعض المدن الكبيرة ومساحة لا تتجاوز سدس القطر الجزائري ، اما الخمسة اسداس الباقية فقد بقيت محكومة بواسطة جمهوريات قبلية .

ونتيجة لهذه الحياة الجماعية العادلة ، كان الفلاح يتمتع بمستوى من المعيشة حسن ، اثر في بنيته وصحته. وها هو الجنرال (فالازيه) يشهد بذلك في احد تقاريره : « كان هؤلاء البدو والسكان في القرى والمداشر يمارسون بعض الالعاب الرياضية البدنية جعلت منهم ـ مع ما كانوا يتمتعون به من الهواء الطلق والرخاء الحقيقي في المعيشة ـ رجالا كاملي الرجولة».

ورخاء المعيشة ، والحياة الديمقراطية ، وسلامة البنية ، جعلت من الفلاح بالجزائر نموذجا كاملا للانسان الثائر . فهو لا يعرف سوى الحرية ويجهل كل انواع العبودية ، له نفس تأبى الضيم وتعاف الذل ، جبار اذا ما شعر بأن كرامته مست ، اسد اذا اعتدى عليه . اذا ثار فهو صامد لا تلين له قناة، له اصرار على الوصول الى الهدف يبلغ الى حد العناد. هذا النموذج الكامل للانسان الثائر في شخصية الفلاح العربي بالجزائر هو الذي جعل الجنرال (بوجو) (مؤسس الاستعمار الفرنسي بالجزائر) يصيح صيحة ملؤها الاعجاب ، قائلا : آه ، لو لم يوجد العرب في الجزائر او لو كانوا يشبهون تلك الشعوب المائعة التي في الهند... لما نصحت بلادي بان تكون جالية الى جانب العنصر العسكري. ولكن وجود هذه الامة التي بلغت من شدة المراس والاستعداد للحرب ، حدا ارفع بكثير مما هو عند الجماهير الاوروبية ، يضطرنا اضطرارا الى ان نضع امامها وحولها وفي وسطها ، سكانا يكونون على اوفر ما يمكن من القوة.»

هذه الصلابة ، هذا الثبات ، هذا الاصرار ، هذه البطولة الاسطورية التي امتاز بها الفلاح بالجزائر هي التي جعلت ضابطا فرنسيا اخر اسمه (فيستي) يصرخ بالاعجاب ، وهو يروي لجنراله ، في احد تقاريره حادثة رجلين اتهما بقتل ضابط تركي يعمل في الجيش الفرنسي... وحكمت عليهما السلطة الفرنسية بقطع يديهما . قال الضابط الفرنسي: « حزم ذراع كل منهما عند الزند ، وشد على شرايينهما بحبل ، ثم وقع جز اليد بتمهل وبطء ، ثم رميت اليدان على وجهيهما . ولكن يا سيدي الجنرال ، لقد رأيت هذا بعيني ، انه لم يظهر على الرجلين اثناء العملية ـ اي شعور بالالم . لقد كان وجه كل منهما طبيعيا لا اثر فيه للتوتر او التقلص . ثم تناول كل منهما يده الملقاة على الارض بيده السليمة وسار الرجلان جنبا الى جنب يتحدثان بهدوء عجيب ... ان رجالا من هذا الطراز قادرون على ان يفعلوا شيئا عظيما ورائعا ... »

وبالرغم من ان جيش الاحتلال استعمل كل وسائل الرعب والابادة ، والتقتيل الجماعي، والتعذيب ، فقد بقي الفلاحون صامدين لم يستسلموا ابدا.قال ضابط يدعي (كاروبي) : «تجولنا طويلا لكي نحرق ونتلف ونسحق القبائل بين البليدة والشلف ، وفي ضواحي شرشال . وبالرغم من ان الرعب الذي نشرناه كان عظيما ، فان الهدف الذي كنا نريد تحقيقه وهو استسلامهم ظل بعيدا ».

وثورات هؤلاء الفلاحين العزل ، الذين احرقت قراهم ، واتلفت مواشيهم وهدمت مزارعهم هي التي اصبحت تهدد الجيش الفرنسي ذا الماضي العريق في تاريخ العسكرية بالابادة . قال الدوق دوليان « ان هؤلاء الرجال ذوي الحمية والبأس ، قد اذاقوا الفرنسيين متاعب لم يعرفوها في كامل حروبهم الامبراطورية ، وساهموا ـ اكثر من اي جيش نظامي اخر في تدمير الجيش الفرنسي .. لقد كانوا يمنعون الجيش ان يذوق للنوم طعما ، وانما يضطرونه للبقاء على قدم التحفز الذي لا يهدأ » .

لقد فشلت كل الوسائل التي اتخذها الفرنسيون زمن الاحتلال ، لاخماد ثورات الفلاحين بالقوة . اذن فما هو الحل الناجع لايقاف هذه المقاومة الجبارة ؟ لقد توصل الفرنسيون اخيرا الى الحل وهو كما يقول (موريسيار)

« لكي نحقق تلك الغاية ، يجب ان نستورد مزارعين اوروبيين ، لاننا لا يمكننا ابدا ، ان نثق ثقة كافية بالاهالي، الذين لن يترددوا في القيام بثورة عند سماعهم لاول بادرة للحرب ، فبين الغزو والاحتلال الحقيقي ، لا يكون استسلام العربي الا مرحلة لا بد منها . ان السكان المسيحيين (الفرنسيين) المزارعين هم وحدهم الكفيلون بان يحققوا املنا في استقرارنا يوما من الايام في الجزائر . يجب علينا ان نعمل على احضار اكبر عدد ممكن من المزارعين المعمرين ، ونشجعهم بان نقتطع لهم الارض ونملكهم اياها ، ازداد عددهم » .

اذن فالحل الذي توصل اليه الفرنسيون للقضاء على مقاومة الفلاحين هو تجريد هؤلاء من مصدر هذه القوة الجبارة وهذا البأس السحري. تجريدهم من الارض التي كيفت شخصية الفلاح وابرزتها الى الوجود كشحنات من الطاقات الثورية الرهيبة ...

وهكذا صار العقاب الذي يسلط على القبائل الثائرة، تجريدها من ارضها وطردها منها . فمثلا فرضت على القبائل التي قامت بثورة سنة ١٨٧١، غرامة قدرها : « ٣٦ مليونا من الفرنكات » ، مع تجريدهم من املاكهم التي قدرها المؤرخون الفرنسيون بنصف مليون هكتار (الهكتار يساوي فدانين ونصفا) .

ولجأ القادة الفرنسيون الى اغراء المجندين في جيش الاحتلال بمنح كل جندي او ضابط اوروبي حصته من ارض القرية المقهورة . وهكذا صارت ارض القرية تقتطع للضباط الذين يخمدون ثورتها ، ويجلونها عن ترابها . اما السكان فكانوا يطردون الى المناطق النائية عن العمران . قال احد الضباط الفرنسيين . « اما وقد عجزنا عن اخضاع الجزائريين فلنرم بهم بعيدا كالوحوش الضارية ، التي تطرد من الاماكن المأهولة .علينا ان ندفع بهم امامنا مع تقدم العمران حتى نرميهم في الصحراء ، ونبقيهم هناك الى الابد .. »

وانتشرت المضاربة باراضي القبائل السليبة بين الضباط الفرنسيين . قالت زوجة الجنرال برو PRO في خطاب ارسلته الى احد اصدقائها سنة ١٨٣٤ ، « تسألني ايها الصديق عما وصلت اليه اعمال الاستعمار هنا . والحق انها اقتصرت حتى الان على الاستيلاء والمضاربة بالممتلكات. الناس يضاربون على الاراضي كما يضاربون في الاسواق المالية على النبيذ والبن . وقد تدهش ، اذا قلت لك ان اراضي (بليدة) قد بيعت ، الى الاف من الافراد قبل استيلاء جيشنا عليها . ويجد المشترون مسرة في تركيب نظاراتهم المقربة في اعلى الهضاب على بعد ثلاثة فراسخ من(بليده) لتنعم اعينهم بمشاهدة الاراضي التي دفعوا ثمنها ، ولما يستول الجيش عليها . ويتوجه الكثيرون الى مكان التوفيق يشترون مساحات من الارض على اساس الوعود فقط . » وهكذا نجد ان سهل (متيجة) وهو مستنقع يبلغ طوله خمسة وعشرين فرسخا ، وعرضه نحو اثني عشرة فرسخا ، قد بيع عن آخره مقدما ، ولم يبق للمشترين الجدد الا ان يدفعونا للتقدم نحوه ، فنقتل او نقتل في سبيل الحصول عليه ».

لكن بعد مدة اكتشف الفرنسيون ان هذه الوسيلة لم تجد ، مع صلابة الفلاحين ، مع هذا العنصر الدينامي المنتج . فبعد ان يطرد الفلاحون من ارضهم ، يتجهون الى مناطق اخرى يستقرون بها ويستصلحون بورها ويستثمرونها بطريقتهم الجماعية التعاونية ، ثم سرعان ما يتخذونها قاعدة للهجوم على جيش الاحتلال من جديد . لقد تكلم (مالارمي) عن جماعات في شرق محافظة قسطنطينة ، وقعت ضدهم عقوبات ، قال ـ « ثم اعاد اولاد يحيي تنظيم شملهم .. وسنعمل على افقارهم ، لان ذلك هو

الضمان الوحيد بالنسبة للمستقبل ».

والحل الثاني ، الذي توصل اليه الفرنسيون ، لاخماد ثورات الفلاحين هو استعمال التشريع كسلاح يسير جنبا الى جنب ، مع عمليات اغتصاب الارض من الفلاحين . ففي ٣١ يوليو (تموز) ١٨٧٢ صدر امر بان يضم الى املاك الدولة مجموع الاراضي الخالية من العمران ، والتي لا يستطيع اصحابها تقديم سندات تثبت ملكيتهم لها قبل تموز (يوليو) سنة ١٩٣٠ (السنة التي وقعت فيها الحملة الفرنسية على الجزائر) وبطبيعة الحال كانت الملكية الجماعية هي السائدة آنذاك وهي لا تحتاج الى سندات يحصل عليها الفلاحون لتثبت ملكيتهم للارض .

وما دامت الملكية الجماعية هي السائدة ، ما دامت الارض ملكا للقبيلة، وللفرد حق الاستثمار فقط ، وليس له حق البيع ، وهو نظام تعاوني يخلق جوا من الانسجام والتعاون بين افراد القبيلة ، ويجعل منهم كتلة متينة منسجمة ، ما دام هذا النظام هو السبب الرئيسي في قوة جبهة الفلاحين وتماسكها ، فلتسن قوانين تستهدف نفت هذا النظام الجماعي ، وتمزق هذا التكتل المنسجم ، وتقلب كتلة القبيلة او القبائل المنسجمة الى مجموعة اسر وافراد متشاحنين متخاصمين ، بالقضاء على الملكية الجماعية ، وبتوزيع ارض القبائل بين اسرها وافرادها ثم اجازة بيعها .. وصدر قانون بالاستيلاء على الارض الجماعية هذا نصه . « اليست الاراضي الشائعة التي تملكها القبيلة ملكية جماعية، قبل كل شيء ملك لله ، واذن فهي ملك للبابليك اي للدولة ، وهي تمثل الله على الارض ،اليست القبائل تملك هذه الارض ملكية جماعية لاستيلاء العرب عليها بالقوة من قبل ؟ ومن جهة اخرى ، الا يجب ان تنتج اكثر من انتاجها وهي على هذه الحال ؟ اذن فلتعتبر القبائل مستأجرة لهذه الاراضي من الدولة ، وليس هناك ما يمنع الدولة من ان تقسمها وتديرها ادارة حسنة ، وتصدر فيها سندات ملكية .»

الا ان اخطر قانون على جبهة الفلاحين كان قانون سنة ١٨٧٣ وتبدو لنا فظاعة هذا القانون من خلال تصريح لاحد فلاحي قبيلة (اولاد ارشاش) عندما قال ـ معلقا على تطبيق هذا القانون ـ : « ان الفرنسيين قد تغلبوا علينا في حقول السبيخة (اراضي هذه القبيلة التي طردت منها ، وقتلوا شبابنا وفرضوا غرامات وضرائب، لكن كل هذا هين ولا يعد شيئا، والجراح لا بد لها ان تلتئم .. لكن ، انشاء الممتلكات الفردية الخاصة ، والترخيص لكل فرد ببيع الاراضي التي تكون من نصيبه بعد اقتسامها ، معناه اصدار قانون باعدام القبيلة . فبعد عشرين عاما من بدء تنفيذ هذا القانون ، سيكون اولاد ارشاش ، قد انقرضوا عن آخرهم ».

ان قائل هذا الكلام ليس هو بخبير اقتصادي ، ولا بفيلسوف اجتماعي، وانما هو فلاح بسيط في الجزائر تعود على الحياة الجماعية ورأى انها هي الوحيدة التي حافظت على الفلاحين من الانقراض امام سياسة الابادة ، والتجويع التي اتبعها الفرنسيون ، وهي وحدها التي ستجعلهم يستردون قواهم ثم يأخذون ارضهم من ايدي المحتلين. وما دام الفرنسيون قد تنبهوا الى نقطة القوة في القبيلة،وعملوا على حلها ، فقبيلته ستنقرض بعد عشرين عاما.

وهكذا توصل الفرنسيون المستعمرون الى هدفهم ، فحلوا الملكية الجماعية ، وبحلهم لهذا النوع من الملكية ، توصلوا الى تفكيك جبهة الفلاحين،وخلق منازعات بينهم تطورت الى حروب بين القبائل من اجل الحدود الفاصلة بين الملكيات ، روى لنا اجدادنا البعض من فظاعتها . وكان الفرنسيون يغذون هذه الحروب ويزيدون من هذه الخصومات

*

تكلمنا عن دور الفلاح في المقاومة . والان نريد ان نتكلم عن دوره في تطور الوعي الثوري ، الذي تجسم في ثورة تشرين الثاني (نوفمبر)١٩٥٤.

ابتدأت تنحدر مقاومة الفلاح لجيوش الاحتلال نحو الغروب ، بعد ثورة ١٨٧١ . ولم يكد يحل العقد الاخير من القرن التاسع عشر حتى كانت هذه المقاومة الايجابية قد « لفظت اخر انفاسها » . ثم جاءت فترة صمت دامت ما يقرب من ثلاثين سنة،لم يسمع خلالها صوت يعلو بالاحتجاج او يطالب بحق.

وفي اوائل العقد الثالث للقرن العشرين ، قطع هذا الصمت صوت ضابط جزائري في الجيش الفرنسي، ينتمي الى عائلة من العائلات البورجوازية الكبيرة ، هو الامير خالد (احد احفاد الامير عبد القادر بطل المقاومة) وبدأ ينضم الى حركة خالد ابناء الطبقة البورجوازية الصغيرة . الا ان تأييد هؤلاء لخالد لم يستمر طويلا ، فما ان بدأ اضطهاد السلطات الفرنسية لحاملي هذه الفكرة الجديدة حتى تخلوا عنه ، وبتخليهم عنه القي عليه القبض ثم نفي خارج البلاد . وودع الامير خالد الجزائر وهو يلعن ابناء طبقته .

الا ان دعوة خالد لم تمت بل ظهرت بعد سنوات عديدة ، في منظمة « نجم شمال افريقيا » بين اوساط العمال الجزائريين بفرنسا سنة ١٩٢٦. ولم يكد يدخل العقد الرابع للقرن العشرين حتى تألف حزب الشعب الجزائري على انقاض « منظمة نجم شمال افريقيا » ثم عقب تاليفه ظهور احزاب معتدلة اخرى كجمعية العلماء الجزائريين ، و (حزب البيان) و (الحزب الشيوعي)(١)

ونحن لا ننكر دور جمعية العلماء وحزب البيان في تطور النضال ، ونشوء التجمع الوطني ، وانما الذي يهم بحثنا هو « حزب الشعب » . فهذا الحزب هو الذي حدد الاتجاه الثوري السليم في اول برنامج يصدره وهو المدرسة الثورية التي تخرج منها شبابنا الثوري الذي اوقد الشرارة الاولى للثورة ، ولا زال الى الآن يقودها في الجبال .

الا ان الاتجاه الثوري ، لم تتح له فرصة الممارسة الثورية في اول الامر، بل جمد على اثر الانتكاسة الوطنية في ٨ ايار (مايو) ١٩٤٥(٢) ـ بواسطة

(١) ان وصفي (الحزب الشيوعي الجزائري) بالاعتدال يبدو غريبا . لكن الحقيقة هي ان لتاريخ الحزب الشيوعي في الجزائر مرحلتين . المرحلة الاولى كان فيها عبارة عن شعبة تابعة للحزب الشيوعي الفرنسي لان اعضاء اللجنة المركزية لهذا الاخير كانوا يعتبرون الجزائر ثلاث محافظات تابعة لفرنسا فيما وراء البحار ، ولا يؤمنون بكيان الجزائر المستقل . المرحلة الثانية : امام ضغط جماهير شعب الجزائر وتذمرها ، اضطر قادة الحزب الشيوعي الفرنسي ، الى الموافقة على تأسيس الحزب الشيوعي الجزائري . الا ان هذا الاخير بالرغم من انفصاله عن اصله ، بقيت سياسته تخطط في باريس على ايدي شيوعيين فرنسيين ، وتراعي ظروف فرنسا اكثر من مراعاتها لظروف القضية الجزائرية . فالحزب الشيوعي الجزائري الذي لم ينبع من صميم مجتمع الجزائر ، ولا استمد معطياته النضالية من واقع الجزائر ، لم يعبر في يوم من الايام عن حاجة الجزائر . وهذا هو الذي جعله يبقى على هامش القضية الجزائرية .

(٢) مؤامرة دبرها المستعمرون وعلى رأسهم ديغول ، وقضوا على ٤٥ الفا من عرب الجزائر في مدة ثلاثة ايام ،عندما خرجت مظاهرات سلمية يوم امضاء اتفاقية الانتصار على المانيا ، تذكر فرنسا والحلفاء بوعد الرئيس الامريكي الراحل (روز فلت) لمنح استقلال الشعوب المستعمرة التي شاركت في الحرب ضد النازية . والغريب ان وزير الطيران لحكومة ديغول في هذه الفترة ، كان شيوعيا اسمه لا فروكس Lafroux وعندما محا الطيران الفرنسي اربعين قرية جزائرية لم يحرك الوزير الشيوعي ساكنا وبقي في منصبه كان شيئا لم يحدث .

عنصر جديد ظهر في اطارات الحزب هم ابناء الطبقة البورجوازية الصغيرة التي حدت من ثوريتهم الجامعات الفرنسية ، كالاطباء والمحامين والاساتذة ... وجعلتهم يفكرون تفكيرا معتدلا ، ويتنكرون للتفكير الثوري .

ولجا الشباب الثوري للحزب الى تاليف منظمة سرية داخل الحزب سماها (المنظمة الخاصة) ، تحت قيادة بطلنا العظيم (بن بلا) بعد ان اكتشف التناقضات التي بدات تتسرب الى صفوف الحزب . وراح شبابنا الثوري يعمل في سرية وصمت متمردا على قادة الحزب البارزين ، الا ان مطاردة السلطات لقادة (المنظمة الخاصة) ، وتركز امكانيات الحزب المادية بين ايدي قادته اللاثوريين ، ساعدا على شل حركة الشباب الثوري وتجميدها .

والثوري بطبعه لا ييأس ، وهكذا استمر شبابنا الثوريون يعملون في دائرة محدودة ويترقبون الفرصة السانحة ، حيث تؤدي التناقضات في داخل الحزب بالجناح اللاثوري الى الانحلال والتفسخ. وفي سنة ١٩٥٣ حانت هذه الفرصة ، فانشق الجناح اللاثوري عن نفسه ، واصبح السادة ابناء العائلات البورجوازية يتراشقون بالتهم ، بل ويدخلون في معارك بالمسدسات في شوارع العاصمة . ودفع سلاح المبادرة ـ الذي لا يحسن استعماله سوى الثوري الحقيقي ـ دفع بشبابنا الثوري الى استغلال هذه الفرصة ، وضرب ضربته فجاءت في الصميم .

ولعل اول خطا وقع فيه الاتجاه الثوري ، في تاريخ نضال الجزائر ، انفصاله في اول نشاته عن الطبقة التي تؤلف جزءا هاما من الشعب . طبقة الفلاحين التي تكمن في اعماقها طاقات ثورية هائلة . ولم يعتمد في عمله الا على سكان المدن ، الذين كانوا سلبيين لاثوريين في تاريخ كفاح الجزائر . الا ان الاتجاه الثوري لم يتماد في خطئه بل استفاد من تجاربه واكتشف الفلاح ، وترك المدينة الى حين ثم ذهب الى القرى يعد للثورة . والحركة التي لا تستفيد بتجاربها ولا تراعي ظروف بيئتها ولا تكون فيها النظريات كالخلايا في الجسم تموت ثم تلد من جديد ، الحركة التي تجمد على التفاصيل المعينة ، تعتبر ثورية زائفة ودخيلة على التفكير الثوري السليم .

وقد يتبادر للذهن هذا السؤال : كيف حافظ الفلاح على ثوريته بعد هذه الضربات المتوالية التي وجهتها السلطات الاستعمارية الى كيانه الاجتماعي ونظامه الاقتصادي ؟ كيف يمكن للفلاح ان يكون ثوريا بعد ان افتكت ارضه منه ؟ اليست الارض هي مصدر هذه الطاقات الثورية ؟

والجواب ، هو ان الفلاح الذي تفكك كيانه الاجتماعي على ايدي قادة الاحتلال الفرنسي ، لم يعدم بقية من اثار هذا الكيان المرتبط بالارض ، نقلت له في قالب تقاليد توارثها ابا عن جد ، من خلال حلقات السلسلة التاريخية التي تربط عهد قيام كيانه الاجتماعي بتاريخه الحديث.

ان الفلاح اذا ارتبط بالارض ارتباطا وثيقا وسليما ، ودام هذا الارتباط مدة تمكنه من الاثمار ، ترك آثارا عميقة في نفسية الفلاح لا يمحوها الزمن ولا تعاقب الاحداث . ان الارتباط السليم بالارض يترك في نفسية الفلاح آثارا شبيهة بما تركته الاشجار الباسقة في عنق الزرافة حسب النظرية الداروينية .

ان الذي يعيش في قرية من قرى الجزائر ،ثم تتاح له فرصة التامل في بنائها الاجتماعي من الخارج ، وفي العادات المتوارثة في هذا البناء ، سرعان ما يدرك بقية من تقاليد وعادات ترجع الى (عهد الحياة الجماعية) للفلاحين . فبالرغم من ان كل فلاح له ارضه التي تفصلها عن ارض جاره حدود معينة ، فان مضمون العلاقات التي تربط بين الفلاحين بقي جماعيا .

فنظم (الخماسة والقطاعة ، والجيارة ، والمزارعة ، والتويزة ، كلها انواع من التعاون والتكامل الاجتماعي في مجتمع القرية .

فنظام الخماسة يتيح للذي لا يملك ارضا يستغلها ، ان يشارك من لهم ارض في القرية ، فيتطوع بعمله فقط ، ويسمى الخماس ، ويحسب له صاحب الارض هذا العمل كطرف في شركة . يقوم الخماس بعملية الحرث ورعاية الحقول طوال السنة . اما جمع المحصول فطبيعة موسم الحصاد تقتضي التعجيل به . ولهذا فان جمع المحصول لا يقوم به الخماس وحده، بل يشارك فيه صاحب الارض . واذا احتاج الخماس الى مواد غذائية لاسرته ، قبل حلول موسم الحصاد ، ناوله اياها صاحب الارض . ويتقاضى الخماس خمس المحصول في مقابل عمله .

ونظام القطاعة عبارة عن قيام صاحب العمل بجمع محصول ملاك فى مقابل نسبة يتفق عليها الطرفان ، وتتراوح بين سبع وثمن المحصول يدفعه صاحب الزرع (للمقاطعي) في مقابل عمله .

ونظام الجيارة عبارة عن علاقة تربط بين صاحب الحقل والعمال الزراعيين وفي اغلب الاحيان يكون هؤلاء العمال غرباء عن القرية، جاءوا من مناطق اصيبت بالجفاف . ويقوم (الجيار) بعملية الحصاد فقط ، اي حصد الزرع وتكديسه في الحقل . ويأخذ في مقابل هذا العمل عشر الاكداس التي جمعها .

وهذه النظم الثلاثة لا تعتبر العامل اجيرا يبيع عمله نقدا ، وانما يدخلانه كشبه شريك في محصول صاحب الارض ، ويمنحانه نسبة معينة من هذا المحصول .

اما التويزة فانها نوع من التعاون بين سكان القرية على حرث الحقول او جمع المحصول . يدعو الفلاح الى (تويزة) ويحدد الجميع يوما معينا لذلك . ويتعاون كل سكان القرية فيجمعون المحصول . اما الفلاح الداعي الى (التويزة) فيقوم باحضار الفطور الى الحصادين في الصباح بالحقل . ثم ياخذه الى منزله عند الظهيرة ليتناولوا وجبة الغداء عنده . ومن شروط (التويزة) ان يجمع المحصول على انغام المزمار ، وتوجد الحان خاصة (بالتويزة) تساعد على تنشيط الحصادين ، وخلق جو التنافس بينهم . وقد قمت باحصائية في احدى (التوائز) فوجدت ان الحصاد في التويزة ينتج اربعة امثال ماينتجه في يوم من ايام عمله العادية .

وتتكفل القرية ايضا بحرث اراضي الارامل واليتامى وجمع محصولها . بل ان التعاون بين الفلاحين امتد حتى شمل الزواج والختان . فالشاب يستطيع ان يختار الفتاة التي تروقه ، واذا وقع الاتفاق بينه وبين ولي امرها ، فان مسالة المهر لا تقف عائقا في طريقه ، فسكان القرية يقومون بجمع المهر وتقديمه لولي امر العروسة .

ان هذه العلاقات التي تربط بين سكان القرية ، تعتبر امتدادا للحياة الجماعية التي كان يحياها الفلاحون ، قبل دخول الفرنسيين وتفتيتهم لهذا النظام الجماعي . وهذه العلاقات الجماعية هي التي لعبت دورا حاسما ورئيسيا في انجاح ثورتنا بالجزائر .

والى جانب هذه العلاقات الاجتماعية ، وجدت بعض الخصال الاخرى ، ـ كنتيجة لها ـ في نفسية الفلاح ساعدت على انجاحه للثورة ، واهم هذه الخصال (الثقة بالنفس). فالمعروف عن الفلاحين في كل انحاء العالم انهم مصابون بعقدة (الشعور بالنقص) ازاء ابن المدينة، ينظرون اليه نظرتهم الى انسان حصل على مميزات لم تتح لهم الفرصة للحصو عليها ، كالثقافة والمدنية والثروة المستقرة .

الا ان الفلاحين بالجزائر شذوا عن هذه القاعدة ، فهم يحتقرون ساكن المدينة ويسمونه (البلدى) ومضمون كلمة (البلدى) في ذهن الفلاح خليط من الميوعة والبخل والانحلال وضعف الشخصية . لقد كان الفلاحون يحبون الاستماع الى كلمة الاستقلال من هؤلاء (البلديين) ولكن كانوا يسخرون من وسائلهم للحصول على هذا الاستقلال ويؤمنون ايمانا راسخا بأن الاستقلال يأتي على ايدي الفلاحين . والفلاحون وحدهم هم الذين يملكون الوسائل التي تمكنهم من طرد فرنسا بجيشها وبوليسها من الجزائر ...

كنت اوزع في احدى الجولات الانتخابية على الفلاحين ، نشرات الدعاية لمرشح وطني ، وكنت الاقي من الفلاحين ـ في معظم الاحيان ـ سخرية من الانتخابات ، واحتقارا للاحزاب التي شاركت فيها . الا انني لن انسى ابدا حادثة وقعت لي مع فلاح عجوز : « ناولته الورقة وشرحت له كيف يضع هذه الورقة في الظرف ثم يلقيها في صندوق الاقتراع . ثم القيت عليه خطبة حول اخلاص المرشح ووطنيته ، وكيف سلخ سنوات من عمره في السجن ، وعن مواهبه الخارقة وجدارته في تحقيق الاستقلال بسرعة. واستمع الي الفلاح العجوز في هدوء لم تتحرك اثناءه عضلة واحدة من عضلات تقاسيم وجهه ، ثم رفع الي عينيه الخضراوين ، وقال وهو يضع التبغ في الورقة ويلفها : « ان هذه الورقة لا تصلح الا للف (الشمرة) اي التبغ » . واردت ان اثور في وجه هذا الفلاح الذي اهان مرشحي البطل .... لكن الفلاح العجوز اوقفني باشارة من يده ، « وقال وهو ينفخ اول خيط دخان من فمه ، ويتابعه بنظراته ويشير اليه بسبابته الخشنة : « ان كل مجهوداتكم هذه تتلاشى مع خيوط هذا الدخان الازرق في الفضاء الواسع ... اذا اردت الاستقلال فاعطني بندقية ، وانا كفيل بان احضر لك هذا الاستقلال واطرد الفرنسيين من الوطن » ثم انطلق الفلاح العجوز وتركني جامدا في مكاني اتابع بصري خيوط الدخان المتلاشي في الفضاء الواسع ، واضغط على رزمة المنشورات في يدي بعصبية .

ان شهامة الفلاح جعلته ينظر الى فشل اول جولة في الانتخابات ، كصفعة وجهها اليه ساكن المدينة ، لقد صدق اسطورة الانتخابات في اول الامر ، ولكن سرعان ما تركها ، واعتبر دعوة ساكن المدينة لها المستمرة سلسلة من الاكاذيب والسخرية .

وثارت تونس في سنة ١٩٥٢ ، اي قبل ثورة الجزائر بسنتين ، وتبادرت الى اسماع الفلاحين حوادثها محاطة بهالة من الاسطورة المحببة لدى الجماهير البسيطة ، فانطلقت افواج هؤلاء الفلاحين تخترق حدود تونس الى معاقل جيش التحرير التونسي ، لتحارب جيش الاستعمار . وكفاكم ان تعلموا ان (الازهر شريط) احد ابطال معارك الجرف الخالدة ، وقائد منطقة الجبل الابيض ، كان يحارب في صفوف جيش التحرير التونسي ، قبل فرة تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩٥٤ .

لقد اعتبر الفلاحون بالجزائر تقاعس شعبهم ، في الوقت الذي تثور فيه تونس ومراكش ، لطخة من العار . وكثيرا من كان الفلاح يصرخ عند سماعه اذاعة صوت العرب عن انباء تونس والمغرب الاقصى . « السنا رجالا ؟ هل التونسيون والمراكشيون ارجل منا ؟ »

وفي اوائل سنة ١٩٥٤ ، عندما بدأ شبابنا الثوري في اعداد الثورة في القرى ، وجدوا الفلاحين يغلون كالبراكين ، ويترقبون اشارة الانطلاق ليثبتوا للملأ ان في الجزائر ابطالا. وما ان اعلنت ساعة الصفر حتى انطلق هذا الفلاح البسيط يمنح الفعالية لا لثورة الجزائر فقط ، بل وللثورة العربية في جميع اجزاء وطن العرب. وراح الفلاح يفتح الواجهات الجديدة ، دون ان ينتظر امرا عن القيادة ، ولم تمض بضعة شهور حتى كانت جبال اوراس واللمامشة وشمال قسنطينة وجرجرة تطلق بحمم الثورة الممزوجة بالحان الحرية .

ان الفضل في استمرار ثورتنا وتجاوزها للعراقيل ، تجاوزها للستار الحديدي الذي ضربه الاستعمار حول ثورتنا ... ان الفضل في انتصار ثورتنا على سياسة التجويع ، والابادة الجماعية ، والتشريد ، يرجع كله الى الفلاح والى الفلاح وحده . فالروح التعاونية السائدة بين الفلاحين جعلت جيش التحرير لا يحتاج الى لباس ولا الى مواد غذائية . والغريب ان المناطق التي اصبحت محتاجة الى مواد غذائية ، نفد من عند كل سكانها الزاد في لحظة واحدة . كان الاغنياء ومن لهم احتياطي مخزن من الحبوب او النقود يتقاسمون مع بقية سكان القرية لقمة العيش ، الى ان طلع عليهم يوم واكياس كل سكان القرية غنيهم وفقيرهم ، ملاكهم ومعدمهم ، فارغة .

كان الفلاحون في الوقت الذي يشاهدون فيه فلذات اكبادهم يتضورون جوعا ، يرسلون الوفود الى قادة جيش التحرير ليقولوا لهم بالحرف الواحد « اياكم ان تتوهموا ضعف معنوياتنا فتراودكم نفوسكم على التنازل ، استمروا في الكفاح ، اثبتوا على الاستقلال الكامل ، والله معنا .... »

وحكى لي احد زعمائنا هذه القصة : قابلت مرة احد الفلاحين ، وشكا لي حاله ، وكيف قتل الفرنسيون كل ابنائه . ودمعت عيناه فسألته رايه في الاستقلال الداخلي ، فاجابني والدموع تنهمر من عينيه ـ ان هذه الدموع لا تجففها سوى راية الاستقلال التام ـ

لقد ادى شعبنا بالجزائر واجبه كاملا في ثورة العرب بالجزائر ، وابيد منه حتى الان مليون نسمة ، دمرت قراه واتلفت ثرواته ، اعتدى على شرف بناته ، مثل به اشنع تمثيل ، ولا زال الى الان صامدا كجباله مستعدا لان يباد عن اخره في سبيل نجاح ثورته (١)

الكويت — عثمان سعدى

(١) محاضرة القيت في « نادي الاتحاد الكويتي بمناسبة الذكرى الرابعة لثورة الجزائر .

مجموعات « الاداب »

لدى الإدارة عدد محدود من مجموعات السنوات الخمس الاولى من الآداب تباع كما يلي

مجموعة السنة الاولى	٩٥ل.ل	١٠٠ل.ل
« « الثانية	٢٥ «	٣٠ «
« « الثالثة	٢٥ «	٣٠ «
« « الرابعة	٢٥ «	٣٠ «
« « الخامسة	٢٥ «	٣٠ «
« « السادسة	٢٥ «	٣٠ «